

## وهم العالم الافتراضي

### ديمة أبو العسل\*

الفيسبوك، وهي أكثر شبكات التواصل الاجتماعي شهرةً وشعبيةً في العالم، تقدّم للمستخدمين إمكانيات تواصل عديدة، نحو: عرض صور؛ تحيين أماكن التواجد؛ التعريف بهوية المستخدم من خلال عرض صور؛ وضع فيديوهات بصيغة بثّ حيّ ومباشر... هذه الأفضليات في شبكة الفيسبوك تجتذب مليارات المستخدمين سنويًا، وفق الإحصائيات التي توفرها الشبكة نفسها، من خلال الخدمات التي تقدّمها لهم. من الجدير بالذكر أنّ الفيسبوك برّجت، في البداية، كشبكة اجتماعية تفتح المجال أمام طلبة جامعة هارفرد للتواصل والتعرّف، وكذلك بغية تبادل المعلومات الأكاديمية والمواد. وبعد بضع سنوات من العمل داخل هارفرد، قرّر القائمون عليها فتحها أمام العالم بأجمعه، وهو ما جذب مليارات المستخدمين، وفتح مجالاً أمام حركات اجتماعية وسياسية أن تأخذ حيزاً وتعمل على نشر أيديولوجياتها في جميع أنحاء العالم. بيدّ أنّها لم تجتذب المستخدمين فحسب، وإمّا جذبت كذلك باحثين في مجال شبكات التواصل الاجتماعي ومجال الإعلام الحديث.

يرى بعض الباحثين أنّ شبكة الفيسبوك تشكّل مجالاً عموميًا أمام مستخدميها، وتتيح للجميع فرصًا متساوية في مكان افتراضي بعيد عن الواقع. أوّل من استخدم المصطلح "المجال العمومي" كان الباحث هيرماس، وهو بصدد وصفه لعملية اتّخاذ القرارات لدى الطبقات الحاكمة والقوية حول الطاولة المستديرة في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولكن ادّعاء هيرماس قوبل بوابل من الانتقادات من قبل باحثين آخرين بقولهم إنّ عملية اتّخاذ القرارات، آنذاك، تجاهلت النساء والطبقات المستضعفة والفقيرة، ولذلك لا يمكنها أن تشكّل مجالاً عموميًا.

ينعكس هذا السجال، بشأن المجال العمومي، على شبكة الفيسبوك من خلال النقاش حول السؤال: هل الفيسبوك منصة متساوية للجميع، أم هو عالم افتراضي يعكس الواقع وصراعاته؟ ويحتدم الجدل بين باحثي شبكات التواصل الاجتماعي حول قدرة هذه الشبكات على بناء مجال عمومي بين المستخدمين وإلغاء التمييز والطبقية والسياسات

العنصريّة في بعض دول العالم؛ إذ يرى بعضهم أنّ شبكات التواصل الاجتماعيّ، ولا سيّما الفيسبوك، تشكّل مجالاً عموميّاً مفتوحاً أمام جميع مستخدميها يتيح لهم فرصاً متساوية بدون أية عواقب، بينما يرى البعض الآخر أنّ شبكات التواصل الاجتماعيّ على وجه العموم، والفيسبوك على وجه الخصوص، تترجم الواقع كما هو وتعكس الصراعات القائمة، اجتماعيّة كانت أم سياسيّة.

سيناقش في الجزء الأوّل من المقال السؤاَل المتعلّق بقدرة الفيسبوك على تشكيل مجال عموميّ أمام مستخدميها مستعرضاً ادّعاءات الباحثين من كلّ طرف. أمّا الجزء الثاني من المقال، فسيحاول القيام بقراءة لاستخدام الفيسبوك في السياق الفلسطينيّ في الداخل، لينحاز إلى الموقف القائل أنّ هذه الشبكات جاءت لتخدم المجموعة القويّة -وفي حالتنا تخدم السلطة وترسخ قوّتها إزاء الناشطين الفلسطينيين.

يدّعي بعض الباحثين أنّ الفيسبوك وقر فسحة بديلة للواقع المرير، وهو ما يمكن جميع المستخدمين من استعماله بتساوٍ في أكثر من مضمار، نحو: إبداء الآراء؛ انتقاد السياسيّين؛ مشاركة الجمهور في شتّى المضامين... والأهمّ من ذلك هو اعتبار الفيسبوك منصّة متاحة للجميع للتعبير عن آرائهم، وبخاصّة لدى الشرائح المجتمعيّة المكبوتة، كالأقليات القوميّة والنساء. بالإضافة إلى هذا، تشكّل شبكة الفيسبوك منصّة للنشاط الاجتماعيّ والسياسيّ، إذ إنّها مكّنت من تشكّل بعض الحركات السياسيّة والاجتماعيّة من خلالها. من جهة أخرى، يناقض باحثون آخرون هذا التوجّه معتقدين بأنّ شبكة الفيسبوك تشكّل نافذة مُمكنُ السلطات والمجموعات القويّة من النظر عبرها، ابتغاء مراقبة الديناميكيات الحاصلة بين المستخدمين، والصراعات التي يعكسها هذا العالم الافتراضيّ. فضلاً عن ذلك، يزعم هذا الفريق أنّ الشبكة هذه لا تلغي علاقات القوّة داخل المجتمع، بل ترسخها بالضرورة، فهي تتيح المجال أمام الطبقات القويّة، اجتماعيّاً واقتصاديّاً وسياسيّاً، أن تكبت وتلاحق الطبقات المستضعفة. في الولايات المتّحدة، على سبيل المثال، أثبتت بعض الأبحاث أنّ شبكات التواصل الاجتماعيّ أتاحت هناك الفرصة للرجل الأبيض أن يبني مجموعات تقوم على إقصاء مستخدميها من ذوي البشرة السوداء.

بينما يشدّد الموقف الأوّل في نقاشه على قدرة الفيسبوك وسائر شبكات التواصل الاجتماعيّ أن تشكّل مجالاً عموميّاً أمام مستخدميها، يركّز الموقف الثاني على استخدام الطبقات القويّة والحاكمة لهذه الشبكات بغية مراقبة ومتابعة نشاط مختلف شرائح المجتمع.

في حين يغوص غالبية المستخدمين عميقاً في الترفيه والتسلية اللذين تقدّمهما لهم شبكة الفيسبوك، منجرّفين وراء وهم المساواة وحرّيّة التعبير عن الرأي، فإنّهم يغفلون عن الرقابة والأهداف الخفيّة التي تقف خلف هذه الشبكة الجذّابة.

بناء على وجهة النظر هذه، تستخدم الطبقات الحاكمة والقويّة شبكة الفيسبوك، وغيرها من الشبكات، لمتابعة فعّاليّات المستخدمين، وتفوّهاتهم، والمضامين التي يشاركونها على صفحاتهم الخاصّة، لتتبّعهم ومراقبتهم، وهو ما يعزّز من مكانة تلك الطبقات ويفتح لها باباً آخر لتعقّب شرائح المجتمع المختلفة ضمن إطار نجاح في إقناع بعض المستخدمين بحريّة منصّته.

باعترادي، لو كانت شبكات التواصل الاجتماعيّ منصّة حرّة ومتاحة للجميع، ما وجدنا ملاحظات سياسيّة فقط ضدّ الفلسطينيين في إسرائيل، أو -في سياق الولايات المتّحدة- ما رأينا تفرقةً عنصريّة على خلفيّة لون البشرة في المجموعات المُتاح إقامتها داخل شبكات التواصل الاجتماعيّ، أو ممارسة كبت وسيطرة في المجتمعات الذكوريّة على النساء في المجال الافتراضيّ.

الواقع الذي يعيشه المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل هو مثال على كون شبكة الفيسبوك ترسّخ علاقات القوّة القائمة، حيث يواجه الشباب الفلسطينيّ في إسرائيل ملاحظات سياسيّة، وتحقيقات في غرف الشرطة، وأحياناً يبلغ الأمر حدّ الاعتقال أو الطرد من أماكن العمل. هذا كلّه على أثر كتابات وتفوّهات على شبكة الفيسبوك. ابتدأت هذه الظاهرة خلال وبعد العدوان الإسرائيليّ على قطاع غزة في صيف العام 2014، إذ طُرد عشرات الفلسطينيين من أماكن عملهم بسبب منشورات لهم على شبكة الفيسبوك تدعم المقاومة الفلسطينيّة وسمود الشعب الفلسطينيّ في قطاع غزة. وبالمقابل، رُصدت عدّة تفوّهات لمستخدمين من المجتمع اليهوديّ ينادون بقتل وتهجير الفلسطينيين، فضلاً عن تفوّهات أخرى تحمل توجّهات تحريضيّة على الفلسطينيين في إسرائيل، ولكن السلطات لم تتعامل مع هذه التفوّهات بالصورة نفسها، حيث لم يُطرد أيّ عامل يهوديّ من مكان عمله، ولا جُمّد تعليمه، ولا استُدعيّ للتحقيق. يجسّد هذا المثال دور شبكة الفيسبوك في دعم السياسة المتبّعة في الدولة، والتي تفرّق بين مواطن وآخر بحسب خلفيّة القوميّة وانتماءاته السياسيّة. ففي حين يواجه المجتمع الفلسطينيّ في إسرائيل على وجه الخصوص سياسة التمييز والكبت والقمع على أساس يوميّ، يعكس استخدام شبكة الفيسبوك الحقيقة القائلة بأنّه لا مجال لحريّة التعبير عن الرأي، وانتقاد نهج السلطات وإبراز هويّتنا الفلسطينيّة دون توقّع أيّة تبعات أو عواقب لذلك.

شبكات التواصل الاجتماعيّ عموماً، والفيسبوك على وجه الخصوص، جاءت لتخدم الطبقات القويّة والحاكمة، ولتعزّز من قوّتها ومكانتها في المجتمع، وشكّلت، أيضاً، أداة جديدة بأيدي تلك الطبقات للتعقّب والمراقبة والقمع وملاحقة شرائح مجتمعيّة لا تتناغم مع الأغليبيّة أو مع أجنداتها؛ فالعالم الافتراضيّ ووهّم المساواة الذي يقدّمه يخدعان العديد

من المستخدمين، إذ ليس هنالك مساواة أو حرّية تعبير عن الرأي، بل ثمة مجرد واقع افتراضيّ يطابق واقعنا الحافل بالصراعات والتمييز وترسيخ علاقات القوّة داخل مختلف شرائح المجتمع.

\*ديمه أبو العسل هي مركزة اعلام وعلاقات عامة - مدى الكرمل.